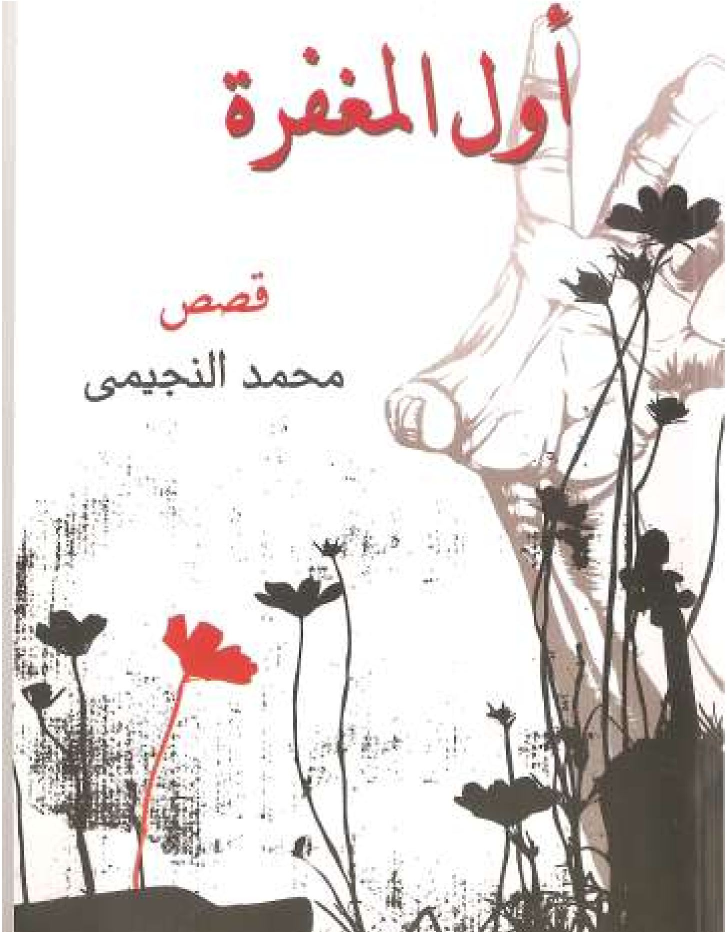

أول المغفرة
قصص
محمد النجيمى

أول المغفرة

أول المغفرة

قصص

محمد النجيمى

الطبعة الأولى 2008.

6 (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: 25797710 (202)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف :

المدير العام : **محمد هاشم**

رقم الإيداع: **/2008**

الترقيم الدولى: **-977-351**

محمد النجيمى

أول المغفرة

قصص

دار ميريت

القاهرة 2008

إهداء

لك يا أنت،

على آخر حدود الطيف ، عند الانعطافة الأولى بعد الامتزاج به، يتحول الركن الهادئ إلى فضاء فسيح تختلط فيه الذكريات العتيقة بواقع يصعب التحقق منه. تمد يدك فلا تقبض إلا الريح، تطلق عنان نظرك فيرتد إليك فزعاً من سراب، تطارد احتمالات السراب فلا يجد الظمآن إلا خيالات الماء و أثار سحابة مرت من هنا قبل ألف عام.

يرتد إليك البصر !

أقصد أن هذا ما يوحي به المشهد ، قبل أن تساورك الشكوك في الرؤى، تنسى المكان و تتوه عن الركن و تفقد الاتجاهات. لا

عاصم اليوم من الطوفان؟

هل جربت أن تحاصرك الغيوم !
تخيل ذلك !

تستعين بيد خفية حتى تنزعك، تمد أصابعك بخوف على امتداد راحتك، تتبعها و ترتفع، تغمض عينيك و تلحق بك الغيوم هناك ، تحول بينك وبين أحلامك و صورك المفضلة و أوهامك التي ظننت أنها ستنجيك منها .

مسكين ! لا عاصم اليوم من الغيم . مسكين فعلاً من يغرق في غيمة !

أول المغفرة

قطعة من حجر قاتم يقبع بأسفل جدار متهالك كانت هي كل ما يحتاجه ليعود إيمانه بالحياة من جديد. قفز يغني و يغني و الكلمات تجتاز ستار شفتيه بعذوبة متناهية لتصفع آذان الجميع :

سمراء ولدت من أمة سمراء
اعتادت أن تبيع جسدها
و لم تكن تكترث للثمن.

طفق يدور و الحجر بيده، استمر في غنائه وترديد المقاطع البذيئة:

سيدي يحصل علي في المرة الأولى
يحصل علي كلما أرادني
وأنا أتعلم منه حتى أكمل فروض المعرفة.

كان غائباً عنا، بعيداً جداً بحيث لا يرانا. بيده قطعة الصخر

تلك و عدة كاملة من المقاطع المثيرة. استمر في ترديدها و هو لا يشعر بنا:

نتعبد سوياً كلما ارتدينا الليل
يعمدني
أعمده
أنا السمراء التي ولدت من أمة سمراء.

لا قانون لي أطيعه، ولا أعرف الخطايا
أبيع نفسي بلا ثمن
أبيع نفسي لسيدي
أصدقاء سيدي
و كل ذلك لا يهم
طالما أنا من ينجب سيده .*

فجأة، توقف. نظر إلينا و وجهه يكاد يضيء ثم سأل:

"هذه امرأة تحب ما تعمل، مخلصة لسيدها. تصنع سعادتها منه و له. تعيش بقية يومها على ما تفضل به من يومه. أليست عابدة بحق؟ أكاد أجزم أنه لا سلطان لأحد عليها."

- هل قطعنا كل هذه المسافة معك، حفرنا كل هذه الأرض من

* أغنية شعبية جمايكية تعود للقرن الثامن عشر.

أجل أن تتغنى بالقبح و تتفوه بهذا الكفر؟

كلمات هذا الأسود الذي لا يعرف الابتسامة وصاحب الصوت الخشن جلبت الصمت أخيراً.

التفت الدكتور بعيداً و واصل تأمله في تلك الصخرة.

لم يلتفت لنا مرة أخرى مع أن محموداً كرر السؤال ذاته وبنبرة أكثر حدة. عندما تيقن أنه لم يعد يستمع له، استدار ناحية المخيم و أسلم خطاه للطريق. بالنس بةلبقيتنا فقد تفرقنا، تبعنا وقع خطوات بعضنا حتى ألقينا بأجسادنا المنهكة في خيامنا البالية.

* * *

لم تكن الشمس قد استفاقت بعد، كان الجميع يغطون في نوم عميق، وحده كان في الخارج يتأمل الحجر.

تشجعت و طاوعت فضولي. تسللت خارجاً من الخيمة و توجهت ناحيته. لفت انتباهي حينها أنه ورغم الهدوء العجيب الذي يخيم على الوادي حيث ننقب إلا أنه لم ينتبه لي.

– سيدي، هل تسمح لي بالانضمام إليك!

خرجت الكلمات متثاقلة و بدت بعيدة جداً حتى بالنسبة لي.

– تعال يا محمد.

رد بهدوء و ابتسامته المضيئة تملأ وجهه. ثم قال:

- أتذكر سؤالي ليلة البارحة؟ أتظن أنك تملك جواباً له؟
- معذرة يا دكتور، فأنا لم أفهم سؤالك و بدا الموقف كله محيراً بالنسبة لي.

تشاغل بالنظر للحجر، وبقيت أنا أتأمل هذا الافتتان العجيب بقطعة صخر قاتمة وجدناها بجوار جدار متهالك.

بعد مرور وقت قصير عاودني فضولي، ألح على السؤال من جديد، فتمتمت:
- ما الذي و جدته في هذه الصخرة و سلبك النوم طوال ليلة البارحة؟
- الإنسان يا محمد، الإنسان.
- كيف؟
- هل سمعت عن بلد اسمه جامايكا؟
- قرأت عنه.
- إذاً تعرف أين يقع؟
- بعيد من هنا بكل تأكيد.

ابتسم، ثم استدار ناحيتي و أعطاني الحجر.
أمسكته بين يدي، وأشار لي بيده ناحية نقش صغير كان يتوسطه. نظرت إليه و بدت لي كتابة غريبة بلغة غريبة كأنها إنجليزية رغم أني لا أتحدث هذه اللغة ولا أجيدها.

- ما الذي جاء بالإنجليز إلى تهامة؟ هذا نقش لن يقل عمره عن قرنين. أتفهم معنى ذلك؟
- محير. لا أملك جواباً يا دكتور ولكني الآن بدأت أفهمك.

عاد الصمت من جديد. لم يقطعه إلا الشمس وهي تباغتنا و تطرد بقايا الليل و النعاس. العمال أيضاً بدأت تعود الحياة لخيامهم، أصواتهم و وقع خطاهم بدأ يؤكد عودة الحركة للموقع و انقضاء الليل.

- أظن أنك تملك تفسيراً لذلك. ألست عالم آثار؟

خرج هذا السؤال رغماً عني. سمعني الدكتور جيداً و نظر إلي ملياً قبل أن يجيب:

- لا يوجد أجوبة يا محمد. كل ما نملكه هو وجهات نظر. تخمين فقط ، قد يصمد لوقت قد يطول أو يقصر، لكنه في النهاية مجرد تخمين.
- ما هي إذاً وجهة نظرك؟
- لا أعلم. لكني سأروي لك حكاية سمعتها عندما كنت أدرس بأمريكا.

***

يبدو أنني قد استلمت الراية من الدكتور. النوم لم يمر من أمام خيمتي هذه الليلة. أنا أيضاً لم أبحث عنه ولم أتربص به في أي زاوية من زواياها. الحكاية التي سمعتها هذه الصباح أربكتني. لا أدري لماذا! ربما أيقظ حديثه رغبة قديمة ملحة كانت تراودني لارتاد غرفة مظلمة في ذاكرتي لم أحاول يوماً أن أفتش فيها عن بعضي!

- ما بك؟ لماذا لم تنم لحد الآن؟
- محمود! ما الذي أيقظك؟
- لا أعلم، لكن أخبرني ما بك، أتشعر بشيء؟أتشتكي من شيء؟
- حديث سمعته هذا الصباح و لازال يتردد صداه في آذاني.
- الدكتور!
- (إيه)
- سألته عن الحجر، أليس كذلك ؟
- كيف عرفت؟
- أنا لم أصادف في حياتي أسودين يبحثان عن الشقاء مثلكما. تنبشان عن الماضي و تصران على بعث الموتى من قبورهم. تتربصون ببقايا أرواحهم في تجاويف الصخر وعلى العظام.
- ما العيب في ذلك؟ هذه الأرواح التي تتحدث عنها لم تبتعد عنا ولم يتركها الآخرون تفعل.
- الحفر عميقاً لن يجلب لك إلا الجروح. سوف لن تجد إلا

المزيد من السواد والظلمة. أنا على يقين من أنك قد جربت ذلك؟ الجروح لا يشعر بها إلا أصحابها ولا يحتاجون أن يحشدوا الأدلة للآخرين من أجل أن يصدقوهم.

عاد محمود للنوم و تركني أعد خيباتي، ترك الحيرة تراودني عن بقية ليلي.

***

" عزيزي الدكتور جابر،

وصلتني رسالتك التي تسأل فيها عن إمكانية توفير نسخة من بحث قديم يشير لمخطوطة كانت عند خازن الكتب السيد جي بي موريتون . بحثت عنها و تأكد لي وجودها و إن كنت لم أستطع أن أحدد مكانها حالياً.

لا أعلم فلعلها فقدت.

على العموم عنوان الكتاب هو "عادات أهل الهند الغربية". وجدت أيضاً معلومة عن الحكاية التي كنت مهتماً بها والتي تقول إن الكتاب يحوي تفاصيلها. التفاصيل رواها لي زميل في الجامعة نقلاً عن محاضرة للدكتور والتر جيكل.

مختصرها هو التالي:

في العام 1822 نجح مجموعة من العبيد من جامايكا في الاستيلاء على سفينة و اقتادوا معهم بعض طاقمها كرهائن. غادرت

جامايكا في طقس عاصف. لم تفلح محاولات السلطات في تعقب السفينة في حينه وظن كثيرون إنها لن تنجوا من العاصفة.

بعد مرور نحو عام عاد بعض أفراد السفينة و كانت معهم تفاصيل بقية الحكاية. حطت السفينة على أرض مراكش و هناك تم أسر هؤلاء العبيد المتمردين مرة ثانية. لم تفلح محاولتهم لمقاومة سادتهم الجدد و اقتيد من بقي منهم حياً. الرواية لم تنته هنا، فبعضهم كما يروي أفراد الطاقم تم ترحيلهم مع حملة الحج المراكشية كهدية لحاكم مكة في حينه.

أتمنى أن تكون هذه المعلومات مفيدة، مع أصدق الأمنيات."

***

بعد أن فرغت من قراءة الرسالة التفت إليه. كان لا يزال يرسم نفس الابتسامة، لكن عينيه هذه المرة كانتا تشيان بالطمأنينة.

همس:

- هل تستطيع أن تكمل الحكاية، أم أفعل ذلك نيابة عنك؟
- أستطيع أن أخمن.
- لم تصل الحملة لمكة، كان هناك من يتربص بها . من بقي حياً هو من كان له ثمن. العبيد كانوا بضاعة رائجة وهكذا صار لهم سادة جدد في تهامة.
- كيف عرفت ذلك؟
- رواية قديمة كان يرويها لي جدي. كنت أشعر أن بها

الكثير من الخيال و الأحلام المكدسة المطحونة.

- ما هي فحواها؟

- كان يخبرني عن جدة قديمة كانت لها عينان زرقاوان. كانت تغني بلغة غريبة، كان لها أبناء كثر لا تعرف أبائهم، لكنها كانت سعيدة جداً، كانت لا تتوقف عن الغناء. لم يستطع أبنائها أن يفهموا غنائها وعندما كانوا يستفسرون منها كانت تحاول أن تشرح لهم بلغتها. المشكلة أنهم لم يستطيعوا أن يفهموا سر سعادة أمهم و سر ولعها بالغناء.

عند هذه النقطة من كلامه قاطعته :

- الآن فهمت. كتبت لهم أغنيتها على ذلك الحجر ، أليس كذلك؟

- قبل أن تموت أخرجت لهم قطعة صخرية قاتمة كان عليها نقش غريب، حاولت أن توصل لهم رسالتها بالإشارة، كانت تطلب منهم أن يحتفظوا بها. هذا على الأقل ما فهموه منها في حينه.

- ماذا حصل بعد ذلك؟

- تشاءم السادة من تلك الصخرة، لم يعشقوا اللون الأسود يوماً و كانوا يخافون من تلك السمراء التي لها عينان زرقاوان و التي كانت تغني بصوت عذب ولحن حزين بأغان لم يفهموها يوما. سلبوا من العبيد الصغار إرثهم وغيبوه.

هنا صرخت:

- لم يتوقعوا يوماً أن بعضاً من أبنائها قد يستعيدون إرثهم، يجدون كنزهم ويفهمون الرسالة.

- ويغنون يا محمد.

ثم اندفعنا ننشد:

نتعبد سوياً كلما ارتدينا الليل
يعمدني
أعمده
أنا السمراء التي ولدت من أمة سمراء.

لا قانون لي أطيعه، ولا أعرف الخطايا
أبيع نفسي بلا ثمن
أبيع نفسي لسيدي
أصدقاء سيدي
و كل ذلك لا يهم
طالما أنا من ينجب سيده.

أسطورة الخلق

ظلت تدور و تدور و تدور حتى خلقته. ولد من رقصتها الأولى، ولد صغيراً جداً ثم استمر يتبعها و استمرت ترقص. بدا يتكور خلفها، يتشكل على صورة حلقات تطرد الفراغ و تصنع حيزها الخاص.

عندما اكتمل، أطلق تنهيدته الأولى ثم أتبعها بصرخته الأولى: نفث نار رغبة متقدة أشعلتها خطواتها المتوثبة. شعرت به، التفتت ناحيته، طيرت له نظرة أججت جمرة قلبه. أطبق عليها، التفت الريح على النور فأطفأتها. أطلقها بعد أن خمدت براكينه، تلوى كما هي عادته، ركب الفراغ و مد أذرعته في الفضاء و ترك لها صوته.

عادت منكسرة بعد أن نسيت الرقص، ضيعت الإيقاع و تعلمت البكاء. لا زالت تسمعه في أحلامها: صوت بعيد بلا ملامح . لا زالت تشعر به نار متقدة أطفأت طقس الروح و علمت الخطو الوجل.

السيدة التى ستلد المخلص

" لما كانت مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا، وجدت حبلى من الروح القدس " .

" هوذا العذراء تحبل و تلد ابناً " .

إنجيل متى

ما قبل الحكاية

توطئة :

" في تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية، قائلاً : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات " .

ترنيمة:

العذراء تحبل في كل زمن.

العذراء هبة السماء للفقراء حين يحاصرهم العري.

كل عذراء أيضاً منذورة لأن تلد المخلص.

رجل يشبه المعمدان كان يصرخ في كل ميدان : هذا زمن احتجبت

فيه السيدة، تأبد فيه بؤس الفقراء وعدموا فيه مخلصهم .

الحكاية الأولى
حكاية السيدة ليلى

راقصة ملتزمة. تؤمن بقضيتها و برسالة الفن السامية.
يقسم كل من شاركها همها على السرير أنها سيدة حريصة على أن تكون أم المخلص القادم. المشكلة التي تؤرقها لحد الآن أن من تطوع للقيام بالمهمة لم يرتق ليكون الروح القدس.

كاتب سيرتها أفرد صفحات عدة ليتحدث عن أكثر من يوسف كانوا في الانتظار ليمارسوا النجارة عندما تحبل العذراء.

الكاتب لم ينس أيضاً أن يدون في الصفحة الماقبل الأخيرة أن السيدة ليلى بلغت الستين و أن المخلص القادم سيولد في (كابريه لحم).

الحكاية الثانية
حكاية السيدة نور
هذه سيدة تشبه اسمها. تفسر العذرية تفسيراً حرفيا.

حدثتني أختها أن الروح يزور نور كل ليلة. المشكلة أنها لا تحمل

منه.

عندما سألتها عن السبب، قالت إن نور تحلم.

قلت لها: " و هل يمكن أن تحمل العذراء في غير حلم جميل ؟ "

ابتسمت، ثم كتبت لي على باطن فخذها بعد أن رسمت سهماً : " من هنا يجب أن يمر الحلم " .

حكاية الرجل الذي يشبه المعمدان

رغم أنهم يقولون إنه يرتدي الكثير من الملابس إلا أن كل من ينظر إليه مليا يراه عارياً.

الرجل يكرر حديثه كل يوم ولا يحسن إلا عبارة واحدة:

هذا زمن احتجبت فيه السيدة، تأبد فيه بؤس الفقراء وعدموا فيه مخلصهم .

بقية حلم

يعاودني هذا الحلم كثيراً. يضايقني ، يقيد أنفاسي و يجعل من تجربة النوم تجربة مخيفة أدخلها كل مرة بحذر وترقب . أنا أكتب عنها الآن حتى أتخفف . يقولون إن الأشياء التي نتخلص منها بالكتابة قد لا تعاود الظهور فالكتابة تسلبها الوجود .

دائماً أراني بصحبة بعض الأصدقاء في مكان معين من المقهى . نفس الأصدقاء يظهرون في ذات الحلم ، دائماً يظهرون بملامح جامدة ، خالية من أي تعبير أو دلالة . الزمان في كل مرة هو ليلة الجمعة ، هناك من يذكرني بذلك في كل مرة يعاودني فيها الحلم . للأسف يحضر الصوت في خلفية المشهد ، لا أذكر أني في أي مرة سابقة من تجربة هذا الحلم قد التفت أو نظرت ناحية مصدر الصوت ، دائماً يتكرر الصوت : لكنه وفي كل مرة بلا نبرة مميزة ، و باهت بلا علامة ، بدون ملامح قد تحفز الذاكرة . المكان ممتلئ بالزبائن ، الضجيج يجعل من الصعب تمييز ما يدور من حديث في مجلسنا ، كل ما يصل إلى سمعي لا يتجاوز كلمات مبتورة ، عبارات متقطعة و في أكثر الأحيان مجرد أصوات يستحيل

فك شفرتها .

كل شيء يبدو مختلفاً ، الحلم رغم غرابته يغمرني بشعور جميل في بدايته . على الأقل هذا ما توحي لي به التجربة أثناء معايشتها .يجتاحني ذلك الهمس الذي أظل أردده ساعة الحلم: " الله ما أجمل السهرة هذه الليلة " ، هكذا أقول في كل مرة و هكذا أشعر رغم تكرار الحلم و العبارة .

تظهر كلما عاودني مشهد الحلم سيدة ملابسها زاهية ، ملامحها واضحة جداً على خلاف الآخرين ، وجهها جميل وعيناها تبتسمان لي كلما راودتهما عيناي .هناك أيضاً سيدة أخرى لا أرى منها إلا نصف وجهها ، تجلس دائماً بطريقة محيرة، وفي كل مرة لا أستطيع أن أرى منها إلا ذلك النصف الذي يزورني مع كل حلم .يبدو لي أحياناً أن الحلم مصمم خصيصاً ليتسع لحضور هاتين السيدتين !

المكان كما أراه مزدحم ، الزبائن يتسامرون ، أحاديثهم صاخبة و أصواتهم تعلو و تستمر في العلو بينما يستمر المشهد في الجريان .

في لحظة معينة ، في لقطة محددة من المشهد ، تبتسم لي السيدة التي لا أرى منها إلا نصف وجهها .هكذا وبدون مقدمات تبتسم لي بنصف فم ، أشاهد عين واحدة تضحك لي ضحكة غير مكتملة .ابتسم أنا بدوري و أقول لنفسي بصوت خافت :" جميل ،

هذه الليلة رائعة ، كل شيء فيها مدهش ."

المشكلة أنني في الحلم أشعر بأن هذا الإحساس زائل ، يغمرني إحساس بالكآبة وأتذكر في كل مرة عندما أحلم وعند هذه اللقطة من المشهد :أن الأحلام كاذبة ، مجرد زيف يتبدد ساعة الصحو .الله لو كان بوسعي أن لا أستيقظ ! لو كان بمقدوري أن أحتفظ بذلك الإحساس الرائع الذي يجتاحني حين تغمرني ابتسامتها بالدفء ! لطالما راودني هذا السؤال في كل منام ، ولطالما رغبت في أن يتوقف المشهد قبل أن أبلغ هذه اللحظة .

في نقطة معينة من الحلم يدخل صديق لي أعرفه جيداً. ملامحه صافية جداً ، نظراته غاضبة على عكس ما أعرفه عنه .في يده قارورة معبأة بشيء لا أميزه و تنبعث منه رائحة تشبه رائحة (الكيروسين) .يندفع عبر الحشد بسرعة ، لاأعرف كيف ولا من أي جهة دخل ! لكنني أعرف أو لعله حلمي الذي يعرف أنه في النهاية يتجاوز الحشد و يصل لزاوية معينة ممتلئة بالضوء و محاطة بعتمة شديدة لا أميز منها شيء إلا عيون صغيرة ، متحفزة وخائفة .

فجأة ! أسمع صوت أنثى تستغيث . يحدث هذا دائماً وبنفس الترتيب في كل مرة يزورني فيها الحلم .أشاهد وجهاً يحترق ، يذوب قطعة قطعة ، يتساقط جلده و يغادره لونه و ملامحه الصافية .تلك العيون التي تضحك لي كل ليلة وتشعل فيّ البهجة ، تنطفئ في

نهاية كل منام و تتلاشى .

الحشد يحيط بهذه الأنثى التي تحترق ، لا تبدو علي أفراده علامات الاهتمام . أصدقائي الذين لا أميز ملامحهم يتبادلون ابتسامات مزعجة و الصوت الذي لا أميزه ولم أتعرف عليه يحدثهم بهدوء وطمأنينة عن قصة يقول أنها حدثت معي ومعه ذلك الصباح .الجميع يعود للمشهد ، يحتل نفس المكان الذي كان يشغله ، وهي تتلاشى ، تغيب تدريجياً حتى يبتلعها الصمت . لم يعد في الحلم أحد إلا أصوات خشنة ، ملامح قاسية و صديق أعرف ملامحه جيداً .

غادر الجميع حلمي حتى الأنثى الغير مكتملة ، السيدة التي لها نصف ملامح ونصف وجه و بقيت أنا و إياه . بدأت الأصوات التي كانت في خلفية المشهد في الخفوت حتى اختفت تماماً .كان الضوء يتجمع من حوله ، ملامحه كانت تزداد وضوحاً ونوراً وكنت أبتعد عن مركز المشهد بالتدريج حتى فقدت صورتي قبل نهاية الحلم .كنت أعرف أنني هناك لكنني لم أكن ظاهرا . كان شخص آخر يحمل في يده قارورة يسلبني حلمي،يسرق مني النور ، ويعيد تشكيل المشهد رغماً عني .

نور

نور هذه لها حكاية مختلفة ، حكاية تنتمي للصحراء وتشبه تضاريسها . غادرت خيمة والدتها في معية والدها تتهادى على جمل يتبع قافلة يظنها من يراها من بعيد خيط دقيق متصل عجنت ملامحه من سراب .

عندما حطت القافلة عند أسوار المدينة كانت أبوابها مقفلة وكان عليهم المبيت خارجها .نامت نور قريباً من والدها ، بجوار ملامح تألفها و أناس يشكلون عالمها .

عندما رفعت الصغيرة رأسها في الصباح ، كان المكان يعج بالناس ، أصوات البائعين كانت تصم الآذان ، والداخلون والخارجون مع باب المدينة كانوا بالعشرات .تلفتت تبحث عن الوجوه التي رافقتها في رحلتها ، غاصت في ملامح من حولها بحثاً عن تلك النظرات التي تنتمي إليها ، تلك النظرات القاسية التي لوحتها شمس الصحراء الحارقة .ارتدت إليها نظراتها التي أرسلتها في كل مكان خائبة ، مذعورة .

أطلقت صرخات بائسة ، سارت تتهجى دموعها في درب أخذها بين خطاها وهي تفتش هناك عن أثارهم . أرسلت قدميها وعينيها وتابعت المسير ، مشت بلا انقطاع حتى ملت الأقدام ، بحثت نور في كل اتجاه إلى أن خانتها الشمس وأسلم النهار نفسه لليل .

عندها يئست و قررت الرحيل .

تذكرت الجهة التي عليها أن تقصدها ، صوبت نظرها ناحية الصحراء ، ناحية الجهة المعاكسة و مضت.

لم تلتفت للرجال الذين سألوها عن وجهتها ، لم تستمع لكلام الأمهات الطيبات في القرية التي تجاور المدينة ولم تقبل دعوتهن للمكوث . لم تسمع حديثهن عن مخاطر الطريق و ما يخبئه الليل للفتيات الصغيرات . طوال مسافة سيرها كانت تحمل في ذهنها صورة واحدة ، صورة أمها وهي تداعب رأسها وتلعب في خصلات شعرها الأسود الفاحم ، كانت مصممة على أن تسلم رأسها الصغير لتلك اليد الحانية مرةً أخرى ، كان هذا هو الشيء الوحيد الذي قد يعيدها للعالم ويخلصها من الخوف الجاثم على صدرها.

مشت كثيراً ، مشت حتى تعبت وأحكمت الظلمة طوقها من حولها .كانت نسائم الصحراء تداعب وجهها ، الأفق الممتد كان

يترآى لها ، أو بالأحرى كانت تتوهم ذلك وتتوقع أن تلجه في أي لحظة .انتصبت ، رفعت رأسها وسرحت نظرة للبعيد ، لكنها لم ترى أي شيء ، كان الظلام يحيك خيوطه السوداء من حولها ولم تكن رؤاها إلا هذيان طفلة صغيرة محبطة وتائهة ، تحن لأمها وتتمزق شوقاً للمستها . وقعت على وجهها من شدة التعب . لسعتها برودة الرمل وأعادت إليها بعض حواسها .تذكرت تحذير أمها لها قبل ليال عندما لاحظت إصرار نور على مرافقة والدها : " المدينة غول يا صغيرتي ، البدو الذين يذهبون إلى هناك لا يعودون " . سألتها نور متعجبة : " لكن أبي يذهب لهناك ويعود ، هذه عادته كل شهر ."

– أبوك يذهب ليجلب الطعام . أبوك يذهب وتعويذته معه .

– أي تعويذه ؟

– تعويذة البدوي ، حصنه الذي يعيده لحضن الصحراء .

– تستطيعين أن تصنعي لي واحدة ، أليس كذلك !

– هذا لا ينفع للنساء .

– لماذا ؟

– المرأة لا تغادر بيتها يا صغيرتي ، عندما تبتعد عن وطنها يسهل خدشها .المغامرة للرجال فقط .

– دائماً الرجال ، دائماً تقولين ذلك .. لن أسمعك هذه المرة ، سأرافقه كما فعل أخي في المرة الماضية .

بكت البدوية الصغيرة بحرقة ، شعرت بغصة .

عيناها كانتا على وشك الانطفاء .الجوع أيضاً بدأ يقرصها ، شعرت به للمرة الأولى منذ مغادرتها .رفعت نفسها بتثاقل ، لم تستطع الوقوف فوقعت على ركبتيها .جلست بلا حراك ، فقط نظراتها الزائغة كانت تحاول اختراق الظلمة ، الوصول للبعيد ، ومعانقة النور .

سمعت أصواتاً مشوشة ، أصواتاً تبدو وكأنها قريبة . لم تكن متأكدة . ظنت أنها أصوات تعرفها ، أرادت أن تدعوها للقدوم ، لكنها لم تستطع ، كانت جائعة ومنهكة وكان صوتها قد نفد منها منذ وقت طويل .

في تلك اللحظة تذكرت شيئاً أفزعها ، جفلت وحاولت أن تقف لعلها تستطيع أن تبتعد ، عجزت عن الوقوف ، تجمدت تماماً في مكانها . وحده صوت أمها كان حاضراً ، كلماتها كانت ترن في أذنها :" احذري من الذئاب عندما تبتعدين عن المنزل . دم الفتاة هو نهاية صومها الطويل ." لابد أن هذه هي الذئاب ، نعم إنها هي .. فالذئاب تتربص بالصغار ، تسد جوعها من نهش لحم التائهين .. هكذا فكرت نور . عرفت أنها فتاة لا تحمل تعويذة ، صغيرة تحاول اختراق ظلمة الليل ، أنثى لم تستمع لأمها ولم تحفظ وصاياها .

شعرت نور بلهاث أنفاس يقترب ، الأقدام كانت تهز سكينة الأرض من تحت جسدها الممدد والمنهك ، قلبها الصغير بدأ ينبض

بسرعة . كانت تصرخ بصمت مستنجدة بالضوء ، كانت تلهث بدعاء وحيد : " أريد الصباح يا الله ، أريد حضن أمي ياالله".

قبل أن يلقي عصاه

طوقته الخطيئة، لونت لباسه بالسواد، و عجنت الطين و الرماد سوياً من أجل أن تهبه ملامحه.
أصبح ملوثاً بالذنب الأكبر، يصيح في المجامع " لا مساس ... لا مساس " . الكبائر صارت طريقته في بدء يومه، قضاء وقت قيلولته و السهر في حضرة سماء تشهد عليه بالفجور.

في ليلة من لياليه المتدثرة بالعهر فاجأته الرؤية. صرخ في روعه رسول البياض " اذهب إلى جنتها، تهجى الدروب حتى تبلغ مطلع النور ".

لم يهنأ في تلك الليلة براحة البال التي تعود أن يتوهمها. حاول أن يعاقر كبائره، جرب أن يتمرغ في ذنبه الأكبر، لكنه لم يستطع. بدأ يشعر بالعجز. تململ قليلاً، تقلب على فراشه، لكنه لم يظفر بالنوم،لم تستجب له أحلامه و هربت منها جميع البغايا اللواتي كن يعمرنها بالرقص و المجون.

في الصباح الباكر ركب خيبته و أسلم خطاه للطريق. واصل دربه و جد في سيره حتى أدركته الظهيرة. لم يستسلم للتعب، رفض أن يلقى عصاه و يريح جسده. تابع المسير، مشى و مشى حتى غابت عنه الطريق و دفن الظلام أثار أقدامه.

كان متعباً حينها، متعباً جداً، لكنه لم يتوقف.

تابع رحلته.

صحيح أنه كان بلا درب، صحيح أن الليل سرق منه صحبة النهار، و مؤكد أن الظلمة أيضاً استولت على ما جمعه من ضوء في معيته، لكنه كان يبتسم. كان يدور حول بقايا ذنوبه و يبتسم. كان يبتسم و الكبائر تتساقط عنه و تزيل عن كاهله ثقل السنين. كان ينظر بعينين زائغتين ولا يرى إلا جنتها. وحدها كانت الطريق و وحدها جنتها كانت الخطيئة التي يتوق الآن لاقترافها ولو حاصرته السماء بالأسئلة و طوقته بالرؤى.

في صباح اليوم التالي وجده نفر من العابرين. كان مستلقياً بهدوء وعيناه شاخصتان باتجاه الشمس. كانت ملامحه صافية لا يكدرها طين و لا رماد لأول مرة منذ ألف سنة و على جبينه رسم يقول " تهجى الدروب حتى بلغ مطلع النور " .

ظلي لم يعد لي

أن تصادف رجلاً يقف على جسر، أن يتصادف و يكون هذا الجسر معلق فوق نهر قديم قدم إسبرطة و ايست آنجليا، أمر لا يجب أن يمر مرور الكرام في حياة غريب يبحث عن خطاه.

- أنت غريب؟
- أنا لا أعرف... ربما فأنا قد أكون كل شيء.
- للغرباء مشية لا أتوه عنها. لهم أيضاً عيون زائغة تخاف أن تستقر على الماء و الشجر و النساء الجميلات.
- النساء الجميلات!
- هل نسيت الطريق إليهن؟
- فقدت خطاي، لم أعد أملك شيئاً يعيدني للدرب و يلقيني على قارعته من جديد.
- هل جربت أن تبحث في السماء عن آثار خطاك؟
- لم يعد في وسعي أن أرفع رأسي من جديد، رقبتي تخونني و ظهري أعلن عصيانه منذ كسره المغول.
- ألم أقل لك أنني أعرف الغرباء!

نفض أكمامه ورمي الزجاجة التي كان يحملها بعد أن عصرها في فيه.

خلفني وحيداً على الجسر و مضى، لكنه سلبني شيئاً آخر كان حتى اللحظة التي قابلته فيها معي، سرق مني ظلي.

– هيه ... انتظر.
– ماذا تريد؟
– أعد لي ظلي.
– أحمق، لم أر في حياتي إنساناً يضيع ظله في الظلام.
– أرجوك، لم يعد هناك من أوفياء حولي إلا ظلي.

لم يلتفت لي. ابتعد في الظلام و ظلي يتبعه حتى غيبه الليل تحت عباءته.

عندما هممت بأن أنفض بقية الليل عني و أغادر، رأيت شبحاً على آخر حدود الجسر. ابتسمت له و ناديت:

– ما أجملك، كنت قد يئست من أن أجدك مرة ثانية.
– أنت كما أنت، تدعي الفعل و قد شيعته للمقبرة منذ ذلك العام. أنا من أنهكتني الخطى و أنا أتبعك، كلما هربت مني وحاولت أن تلقي بخطاك للمجهول كلما تركت لي أثراً يفضي إليك.
– ماذا تقصد؟

- أنهكت الخطى و أتعبت ظلك. لا يصح لميت أن يهرب من شبحه.
- لم أفهمك جيداً.
- تعال و أعدك أن أعيدك معي إلى الجنة.

تحول

كانوا يتحدثون عن الصدق، يوغرون الصدور ضد الكذب والمداهنة. رأيت صنمهم يقسم بكل معبود قرأ عنه أو عبده أنه يمقت الزيف، كانوا يتطهرون في قداس جماعي من بشريتهم حتى أن الأنثى الأم كانت تصرخ "أنا بقرة ملوثة، أنا بقية دم فاسد".

لم يخامرني شك وأنا أرى دموعهم تحفر عميقاً على ما يشبه اللحم أنهم صادقون. كنت على وشك أن أخلع ملابسي، أتعرى و أسفك الماء المقدس من كل عين مقدر لها أن تجري في تلك الساعة الملتبسة.

عندما هممت أن أطأ واديهم حالت بيني وبينهم، كانت شامخة، بريئة وعتيقة مثلها تماما، تشبه تلك التي حملت من كلمة، كانت ترمقني بنظرات عاتبة و وجه يقول لي "كن بشراً، تمثل بإبراهيم و علق فأسك على رأس صنمهم".

معراج

تعجب منه الجلاد كثيراً، في بعض الأحيان لم يستطع مجاراته. كان في سباق معه و كانت الغاية الوصول أولاً لتلك المنصة. مد عنقه في عجلة وقد أغمض عينيه قبل أن يلف الجلاد تلك الخرقة السوداء على رأسه، بدا كمن يستعجل أن يغلق عينيه و للأبد.

عندما لف الحبل حول عنقه كان هناك سكون غريب، لم يتحرك نهائياً. كان يرفع رأسه المدفون تحت تلك اللفافة القاتمة عالياً.

ظن الجلاد أنه يمهد الطريق لروحه أو يختار لها الدرب الذي عليها أن تسلكه.

عندما سقط أخيراً لم يشعر أحد من الحاضرين بذلك، كان هناك إحساس غامر بأنه صعد للأعلى. لم ينظر أحد للحفرة بل تسمرت أعينهم باتجاه السماء.

خوف قديم

قال: اقرأ
قال: لا أحب المجهول.
قال: اقرأ
قال: أخشى من الكلمة.
قال: لم ؟

فتح فمه على اتساعه و صرخ: " في البدء كانت الكلمة " .

ثم انساب:
هذا حمل لا أطيقه. دعني أعاقر الصوت، أنتشي به، أتشربه و أحياناً أتجرع مرارته. الصوت ضائع في العراء، الكلمة مشدودة إلى الكتاب و الكتاب لا يغادر شيئا.

ضربه بالقلم على رأسه، فسال منها الحبر حتى بلل صفحات جسده.

جمرة

سفحت دمعة ساخنة، قطعة ماء مغلي على كف والدها.
جاوبها أخاها الأصغر بجمرة أوقدتها عيناه.

اختنقت عينا الأب بدموع حائرة. قال بصوت مكلوم:
- دموعكم دموع الفرح، أشعر بكما.
أجابت الصغيرة:
- الفرح أودعناه عند سلم طائرة مغادرة، هجرنا عندما تعلمنا لغة الرحيل.
- أنتم الآن عند سلم طائرة جديدة تأخذكم لموطن الفرح.
سفكت دمعة ساخنة أخرى. نشيجها هذه المرة أحرق كبده. ثم قالت بصعوبة:
- أعد لي الماضي يا أبي.
- عندما أعود يا حبيبتي.
- أنت لن تعود. لقد تركتك هناك، عند سلم تلك الطائرة.

لم تعد

وقعت رسالتها بدمعة . سحبت الستارة ، أطفأت النور ، ثم مررت السكين على وريدها . وجد والدها الرسالة على طاولتها ، ممددة و تحمل توقيع نور الأثير ، دمعتها التي رافقت الكثير من رسائلها الأخيرة .عندما قرأ والدها الرسالة ، لم يكن فيها إلا عبارة واحدة ، جملة محملة بتعب نور ، كل أحلام نور وحكمتها التي استخلصتها من حياتها القصيرة : " أبي لا تحزن . على البياض أن يحترق باكراً قبل أن يتلطخ بالظلمة ."

التقط والدها السكين ، تأملها جيداً ، وبعد أن تيقن من أنها غير ملطخة بالدم ، وضعها في جيبه ، ثم أطفأ النور مرةً أخرى ، قبل نور على جبينها ، غطاها بلحافها ، ثم أقفل غرفة نومها بهدوء .

في صباح اليوم التالي ، لم تذهب نور لمدرستها ولم يعد والدها لغرفة نومها أبدا .

أيـهما !

اشتكى الحرف، باح لليد بخيبة ما انفكت تلتصق به.
شدت اليد على القلم، ثم نقشت:

ابتلـي الإنسان بالإنسان، كلهم يعتقدون أنهم ملائكة. ستحتار كثيراً لو عشت ترقبهم. لن تخرج بفائدة من شياطين تتوهم النور.

نظر الحرف بحيرة إلى اليد، أدهشه صنيع القلم و مطاوعته لها. قال لنفسه و حزن قديم يرتدي وجهه " حتى أنت أيتها اليد لست إلا شيطان يتوهم النور ".

بساطة

" لا أحد يتحدث لوالدي بهذه الطريقة ".

قالتها بغضب، كانت تنظر إلي بعينين حادتين و تفترس ملامحي بتلك النظرات التي ما انفكت تحاصرني بها.

العجيب أنني عشقت هذه المطاردة، فتنتني تلك النظرات و وقعت في غرام عشق فتاة صغيرة لأبيها. تمنيت لو أن الزمن يعود حتى ألتزم الصمت أمام تلك الوقاحة المتعمدة من والدها. تمنيت بعمق أن الخرس أصابني حينها ولم أقترف جناية الرد. ما الذي كان سيحصل لو لذت بالصمت و حملت غضبي و شيعته معي لغرفتي! سأغضب لبعض الوقت؟ ربما! ثم ماذا؟ لا شيء. سأنسى كما هي عادتنا دائماً عندما ندفن خيباتنا، نزقنا و كل ما يسلبنا أنفاسنا في مقبرة عميقة نحملها في داخلنا.

كنت سأحصل على نتيجة رائعة لو كان هذا ما حصل. تلك الصغيرة الجميلة جداً التي تحب والدها جداً كانت ستغادر بمعيته و هي تؤمن به كما هي عادة الأطفال. ما كانت لتضطر أن تقول لي

بغضب و عيناها تشيان بمطر يوشك أن ينهمر :" لا أحد يتحدث لوالدي بهذه الطريقة ".

زيف

" أبي لما أشعر بشيء يخنقني هنا؟ " و أشارت بيدها لقلبها.

صفعني السؤال، وضعت يدي على قلبها و قلت: " قلبك يا حبيبتي يشبه قلب والدك، يختنق حين يحاصره الزيف."

- ما الذي تقصده بالزيف ؟
- هذا الشيء الذي تحسينه.
- أنا لا أشعر بالزيف، أنا أشعر بشيء يضغط على قلبي و يخنقه.

لم أجد جواباً لسؤالها. لذت بالصمت و شرعت في مطاردة هاجس قديم كان يلح علي و يقول إن الزيف معجون من كلام الكبار.

الدليل

كانت مستمرة في حديثها، مندفعة و متحمسة في الحديث عن الله.

كان يراقبها بحياد طوال الوقت، كل ما كان يشغله حينها هو التدقيق في تلك التفاصيل المدهشة لشفتيها و ذلك الانهمار المغري للأنفاس العذبة من ضفتيهما.

فجأة و دون سابق إنذار وجد الدليل الذي يبحث عنه.

لم يكن هذه المرة بحاجة لدليل مادي أو برهان عقلي حتى يؤمن. حماسها و ذلك الاندفاع الذي كان يسم ردة فعلها علمه معنى أن تؤمن بدون دليل. لم يكن بحاجة بعد اليوم لدليل على حبها و تعلقها به. تيقن عندها من حكمة أمه العجوز:" الإيمان كفر بالبرهان، الإيمان شعور فقط".

لا زال يؤمن بها مع أنها رحلت منذ زمن، لا زال أيضاً يؤمن بالله.

آخر الواصلين

فراشة جميلة تركت لي بعضاً منها ... تركت وردة.
قلب الوردة باح لي بسر و حملني رسالة.

حملتني و امتطيت الشوق. عندما بلغت أول الحرف، أيقنت أني آخر الواصلين إلى الحلم . ألم بي وجع، طاف بي طائف من الحسرة.

ثم استرجعت ، تذكرت أن الداخلين إلى الجنة لا يعنيهم إلا بلوغها.

لم يصل

- "لم أفئ ولم أعد أرى صديقي ،
يبدو أنه تلبسه بعض مس من ذلك الذي اعتادني حتى غدوت حبيس أربع جدران و ذاكرة مشتتة !"

- لعله مثلك! يمشي وجدران أربعة تتبعه و تعزله عن سماع ضجيجهم. جسده معهم و ذاكرته ضائعة بعد أن جاوزت الشتات و دخلت زمن التيه.

- هذا زمن يهدينا عيوبنا، يعلمنا أن من تسلقوا على الحرف أوقعوه، تركوه عند أقدامهم بعد أول محطة قادتهم إلى ضوء تتوهمه عيونهم التي لا ترى إلا العناوين و نور منصة تعهرت.

- ثم ماذا بعد يا صديقي!
- أنا و أنت و تهمة جاهزة، أنا و أنت و قلوب ضاع لونها، و زمن لا نصلح له أو لا يقبلنا فنحن هامش على متن أو متن لا يعترف به أحد.

خسارة

جمع أوراق ذكريات سعيدة عتيقة، تأملها جيداً ثم قرر أن يقف ببابها بحثاً عن عذر.

طرق فخرج لهوجه بلا عيون، بلا أنف و له فتحة واحدة تحتل وسطه.

سأل: من أنت؟
أجاب الوجه الذي له فتحة واحدة تحتل وسطه: من أنت؟
قال: أنا أسألك!
رد: أنا أسألك!

انتبه .. فتكور على نفسه، أقعى يائساً على الأرض و شرع في بكاء مرير. بكى كثيراً، كثيراً جداً حتى نفدت دموعه. استمر في البكاء بدون دموع، كان يعرف أنه يبكي من صوت نحيبه، بكى و بكى حتى هجره صوته، سقطت عيناه ثم تداعت شفتاه.

وقف بتثاقل، جمع بقيته و غادر الباب بعد أن نسي العذر.

آخر الخطايا

تعلمت لغة الطير، أتقنت الهديل و علمت الروح أن تحلق معها. عندما راودها الجسد عن السماء، خطفت الروح و تركت الطين في الوحل.


! هل جربت أن تحاصرك الغيوم
! تخيل ذلك
وتستعين بيد خفية حتى تنزعك
وتمد أصابعك بخوف على امتداد راحتك
تتبعها و ترتفع، تغمض عينيك
و تلحق بك الغيوم هناك ,
تحول بينك وبين أحلامك و صورك المفضلة
و أوهامك التي ظننت أنها ستنجيك منها .
لا عاصم اليوم من الغيم !مسكين .
! مسكين فعلا من يغرق في غيمة
تجليات أدبية
ميريت
تصميم الغلاف • سعاد عبد الرسول